أدب . فكر . فن

كتاب

شفافية مصقولة بالتجربة والغربة

الكتاب: "عندما واخواتها".

المؤلف: جاد الحاج.

الناشر: لم يُذكر والحقوق للمؤلف، طبعة اولى بيروت ١٩٩٨.

تبدو الكتابة لدى الشاعر جاد الحاج ضرورة قصوى لمقاربة الحياة، بل انها الكوة التي يطل منها الشاعر على الوجود ناظراً الى هذه الحياة بكائناتها واشيائها ووقائعها وحوادثها ووسائل عيشها، وبها يلامس الاحاسيس والمشاعر والانفعالات، وبالكتابة تغدو هذه الحياة انصع واوضح، فلا الفصول ولا تعاقب الليل والنهار ولا سواهما قادر على صياغة هذا البياض مثلما تفعل الكتابة، لأنه حين "يتوقف عن الكتابة، لا يعود شيء ابيض في ناظريه".

رهافة

وفي كتابه الحادي عشر "عندما واخواتها" يتقدم جاد الحاج كواحد من الشعراء المغايرين الذين يمتلكون نعمة الشعر في هدوئه وفي خفوته وفي رهافته الجوانية البعيدة من التنميق، حتى ان الصورة الشعرية وما تستدعي احياناً من بلاغة، او من بديع وبيان تبدو غير ملحة في قصيدة الحاج، لأن الشعرية لديه ليست في التراكيب والمفردات، وليست لعبة شكلانية أو حتى جمالية. انه شاعر يبتعد عن الصناعة وعن الصنيع، ولا اجدني مثلاً قادراً على استخدام عبارة "صنيعه الشعري" حين الكلام على قصيدته، لأن الشعر لديه حالة قبل اي شيء آخر، اي اننا لا نحظى في جديده بقصيدة في المعنى المتعارف عليه، او في المعنى المتداول حتى من وجهة نظر قصيدة النثر نفسها، وما يلزمها من موسيقى داخلية وصور شعرية، ومقدرة على الادهاش، الى آخر ما هنالك من سمات ومواصفات باتت في الآونة الاخيرة شبه جاهزة، حتى نكاد نقول انه بات "قاموساً" مألوفاً لقصيدة النثر، او "قاموساً" شبه موحد، يشكل مرجعية غير معلنة للعديد من المجاميع التي تصدر هنا او هناك، في بيروت وبقية عواصم العرب.

ابعد

"قصيدة" جاد الحاج، وأضعها عمداً بين مزدوجين، تأتي من خارج هذا القاموس، المألوف والمتداول، من منطقة ابعد واعمق، واقول انه يكتب الشعر لا القصيدة. ورب سائل وما الفرق؟ نعم، ثمة فرق اكيد بين الحالين، فالقصيدة لها شروط وصفات ومناخ، اما الشعر كحالة فمسألة مختلفة يمكن مقاربتها من زوايا عديدة ومختلفة ايضاً، ولعل الشاعر جاد الحاج يعيش تماماً الحالة الشعرية حتى قبل ان يكتبها على الورق، لأني استشف بين سطوره شبهاً كبيراً من الشاعر وشعره، بين الكاتب وكتابه، بين السيرة الذاتية وتجلياتها شعراً، وازعم انه الى حد ما، يمشي على خطى انسي الحاج، على الاقل لجهة مقاربة الحياة شعراً، لا كتابة فحسب، وانما ايضاً سلوكاً وطريقة عيش وحياة، وهكذا اعود الى القول ان جاد الحاج يكتب الشعر، لا القصيدة.

وفي شعر جاد الحاج مسحة روحية وروحانية واضحة، وظلال انشاد ما، وملامح توراتية في المناخ وفي الاسلوب، وفي الطريقة التي يقول بها هذا الشعر، ثمة بخور تفوح رائحته في الكتاب، ومسك وعنبر، وطيبات ومسوح، وعلاقة حميمة بالوجود، ورغم ثقل غربة ما يعيشها الشاعر، الا انه من الشعراء الذين تجعلهم الكتابة في نوع التصالح مع هذا الوجود، رغم نبرة الصعلكة التي تتبدى هنا او هناك في هذا النص او ذاك: "في يوم اليتاع/ يوم اللقاء الأول/ يوم بهاء الخطيئه/ اسندت رأسي/ تحت شربينتي/ وسطهما نخلة باسقة/ والريح عزفت هواها/ وقطار الغيوم غادر خطيه/ الى بحر/ تدمع امواجه/ بياضاً ازرق".

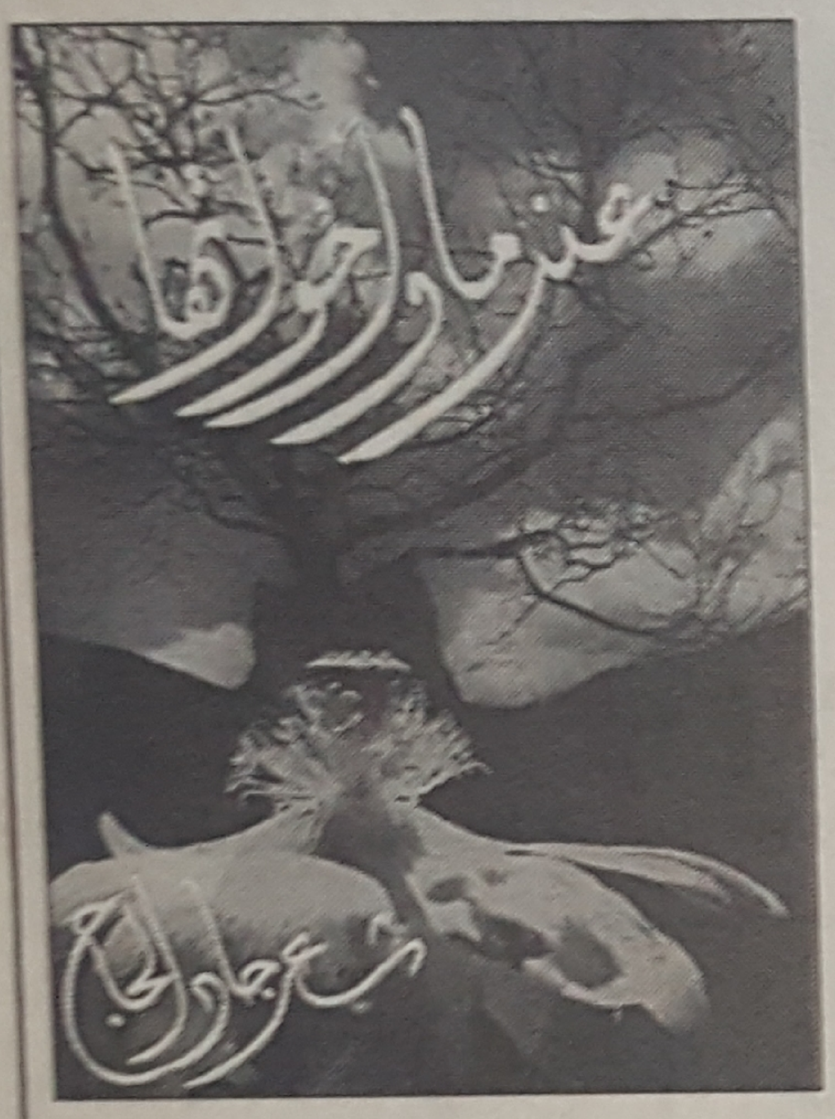

الجمل الفعلية التي يُكثر من استخدامها جاد الحاج تمنح نصه الشعري نبرة حكائية، حتى يبدو كأنه راوٍ عتيق يخبر حكايا خبرها وعاشها على مدى خصب من المشاعر والانفعالات العذبة والرقيقة، لأن هذا الشاعر، وكما يبدو في كتابه الجديد "عندما واخواتها"، على قدر من الرقة ومن العذوبة، وكأنه يعيش ابداً نعمة الحب الداخلي التي تجعل القلب شفافاً كما المياه العذبة، والروح صافية كما المرآة، وفي هذا الكتاب حنين عارم وعشق وفير، وحالة حب ترتقي بالشاعر الى مرتبة صوفية، حتى الهلاك يغدو فيها امراً مشتهى: "تعال يا قمري/ أمس كان اسم اليوم غداً/ امس كان قنديلك بدر الغابة/ هلالك ثلج الخريف/ تعال يا قمري/ يا سعفة الملاك العسلي".

اذاً الظلالة الشعرية رقيقة والنبرة الصوفية حاضرة، والشعرية حالة عارمة لا مجرد صورة او تركيب، وجاد الحاج البعيد والقريب في آن واحد، يعمق تجربة شعرية خاصة ويلوح خلف الافق بما صقلته به الغربة والتجارب وبلاد ما وراء البحار وينادي: "لا تطفئي المصباح يا ريح الشمال".

زاهي وهبي